

## مع كتاب أسواق العرب في الجاهلية والإسلام

محمود فاخوري\*

-1-

**كان** من عادة العرب في العصر الجاهلي أن يقيموا لأنفسهم أسواقاً موسمية عامة في أماكن معينة وأزمنة محددة -إلى جانب أسواقهم المحلية الدائمة- يتعاطون فيها أمور البيع والشراء والتجارة وقداء الأسرى، والتباهي بالأعمال العظيمة والمفاخر الجليلة والمآثر الحميدة، والاستعداد للأخذ بالثأر في قابل الأيام كما سنرى-. وأصبح الكثير من هذه الأسواق -ولا سيما الكبرى منها- موسماً سنوياً لاجتماع القبائل أيضاً وعقد المجالس للمناشدة والخطابة والتحكيم الأدبي والفصل بين الشعراء. ولم تكن هذه الأسواق الموسمية السنوية كلها في وقت واحد، ولذلك كان يتاح للعرب -أفراداً وجماعات- أن يتنقلوا من سوق إلى أخرى، قريبة أو بعيدة قليلاً.

وهذه الأسواق تختلف من حيث الشيرة والذبوع، ومن حيث عدد الناس الذين يقفون إليها، ومنزلتهم الاجتماعية والسياسية والقبلية، وقد درج العرب على أن تكون الأشهر التي تقام فيها تلك الأسواق هي من الأشهر الحرم، ومن ثم كانت أماكنها من الأماكن الحرم أيضاً، فلا يجوز فيها العدوان ولا الغزو، ولا القتال، ولا الأخذ بالثأر.

والأشهر الحرم عندهم أربعة هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الفرد، وسمي بذلك لانفراده عن الأشهر الثلاثة المتتابعة، ويقال له أيضاً "رجب الأصم" لأنه كان لا يُسمع فيه صوت مستغيث، ولا حركة قتال، ولا قعقة سلاح، شأن الأشهر الحرم الأخرى.

وكان لهذه الأسواق أغراض شتى لم تكن لتتحقق لولا وجود تلك الأسواق الموسمية، وفي مقدمة تلك الأغراض قضاء مناسك الحج في الفترة نفسها، والتوفيق بينها وبين الحضور إلى

\* باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب.



ألم يَعِظِ الْفَتَيَانِ مَا صَارَ لِمَتَيِ بِسَوْقٍ كَثِيرٍ رِيحُهُ وَأَعَاصِيرُهُ  
ويقال: تَسَوَّقَ الْقَوْمُ: إِذَا بَاعُوا وَاشْتَرَوْا<sup>(1)</sup>.

### -3-

هذا، وإن أخبار أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ماثورة في بطون كتب الأدب والتاريخ واللغة والمحاضرات، لا يجمعها كتاب واحد، حتى انتدب لهذا الأمر الشاق أستاذنا المرحوم سعيد الأفغاني (1909-1997م) فقام بتأليف كتابه "أسواق العرب في الجاهلية والإسلام" وهو في أواسط العقد الثالث من عمره، وظهرت طبعته الأولى سنة 1936م/1355هـ، في أوقات عاشت فيها سورية أجواء أربعة معارض تجارية متنوعة، حدث الأفغاني رحمه الله على تأليف كتابه ذاك، وهي:

1- معرض الثمار والفواكه، الذي أقيم في مدينة دمشق في تشرين الثاني سنة 1927م، ودام خمسة أيام، واشترك فيه /1500/ عارض من مختلف المدن السورية وزاره من الرجال والنساء والأطفال من يزيد عددهم على الأحد عشر ألفاً، وكان أثره في نهضة الزراعة وانتعاشها مباركاً محموداً<sup>(2)</sup>.

2- معرض الصناعات الشرقية، الذي أقيم في المقر السابق للمجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية اليوم) في المدرسة العادلية بباب البريد. وقد افتتح هذا المعرض في 3/8/1928م واقتصر على دمشق لضيق الوقت، وكان ما عُرض فيه 627 من القطع المنوعة من السجاد والنحاس والأخشاب والأسلحة والمخطوطات والجلود والأقمشة والصور، وكل ما هو من الفنون الجميلة. وقد ظلت أبوابه مفتحة ثمانية أيام وزاره في خلالها أربعون ألفاً ونيف<sup>(3)</sup>.

3- معرض الصناعات الوطنية، أقيم في صرح الجامعة السورية (جامعة دمشق اليوم)، المبنى القديم) وذلك في شهر آب سنة 1929م.

وقد عُرض فيه مصنوعات المناسج على اختلافها، والمصابغ والمطابع والمطاحن والمزايين والمصابين، عدا النفائس الشامية (السورية) من القطع الخشبية والنحاسية والمصوغات، والزجاج والمربيات و "السكاكر" ... الخ. وكان الإقبال على هذا المعرض أكثر من سابقه لشموله أكثر الصناعات الشامية (السورية)<sup>(4)</sup>.

(1) انظر "تاج العروس" لسبكي، مادة "سوق". والمُلَمَّة بكسر اللام وتشديد الميم: الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن.

(2) انظر مقدمة كتاب "أسواق العرب" ص 5 نقلاً عن التقرير الذي رفعه رئيس لجنة إدارة المعرض إلى وزير الزراعة والتجارة يومئذ نسوحي البخاري. ولم يذكر مكان هذا المعرض.

(3) انظر نفسه ص 5-6 نقلاً عن التقرير الخامس بأعمال المجمع العلمي العربي سنة 1928م ص 38.

(4) انظر مقدمة "أسواق العرب" ص 6 (الطبعة الثالثة).

4- وفي ربيع عام 1936 م أقيم "معرضُ دمشق وسوقُها" في ظروف الاحتلال الفرنسي، والأجواء السياسية والظروف الاجتماعية الصعبة التي كانت تمرُّ بها البلاد في سورية، وكان هذا المعرض -برغم تلك الأجواء والظروف- يمثل ذكاء العربي وتقدمه في جميع المناحي، وشاركت فيه كل بقاع الوطن "سورية" بكل ما فيها من تحف فريدة في بابها، وصناعات عبقرية تجلّت في الفكر الخصب واليد الصنّاع. وافتتح هذا المعرض مساء الأحد 1936/6/21 في مدرسة التجهيز الجديدة (ثانوية جودة الهاشمي اليوم)، حيث أجمل بقعة في دمشق وأزهيها، وأحفلياً بأثار العرب في القديم والحديث<sup>(1)</sup>.

ذلك بعض ما ذكره المؤلف في مقدمة الطبعة الأولى لكتابه "أسواق العرب"، وهي مقدمة قيّمة ومهمّة لأنها تؤرخ نواحي اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة في حياة الشام (سورية) في غمرة من الغمرات، وتشير إلى ظاهرة روحية قلقة سادت البلاد إبان قيام تلك المعارض الأربعة، وخصوصاً الأخير "معرض دمشق وسوقها" سنة 1936م، وهي في الوقت نفسه -أعني المقدمة- تأريخ لظروف تأليف ذلك الكتاب بما تجلّى في تلك المعارض -التي أقيمت في أكبر المعاهد العلميّة وصادف آخرها في ذكرى المولد النبوي- من أثرين مزدوجين مرتبطين أشد الارتباط وهما: عبقرية الفكر والعلم، وعبقرية اليد (الصناعة)، وبذلك كله يستعيد العرب والمسلمون ذكريات ما قدّموا للإنسانية من نظم وحضارة وعدل وسعادة. وهكذا تتصل حلقات السلسلة التي انقطعت، ويعود مجدنا الصناعي والتجاري، لتنبؤاً أمتنا مكانها من جديد.

وهذا ما أوحى إلى الأفغاني رحمه الله بخواطر مُندفقة عبّر عن بعضها بقوله: (ص10)

”كنت في هذا الجوّ من الغبطة والذكرى والتأثر، لما عرضت في ذهني حلقات تاريخنا، وأين انقطعت في كل حلقة، ومتى عهدنا بوصلها؟ فكان أول ما جال في خاطري - وأنا في معرض دمشق وسوقها - أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، وكيف كانت تزخر بالناس من تجار وصنّاع، وأدباء وشعراء وخطباء، وساسة وأشرف، عجبت لهذه الذكرى، وقد أعاد هذا المعرض لنا أسواقنا مع مراعاة الفارق بين الزمانين - وذكرت أن المجمع العلمي بدمشق.. سيقوم بمهرجان للمتنبي في آخر أسبوع من تموز... لتتم لنا صورة عن أسواق العرب ومحافلهم فيها. فكملت بهذا أداة هذه السوق العربية الكبرى بما يتلقى فيها من أدب وشعر وعلم، وبمن سيؤمها من العلماء والأدباء من المشرق والمغرب: عرباً وأجانب ومستشرقين، وأصبح من كان يتمنى أن ينعم بمراى عكاظ في الجاهلية يستطيع أن يشهد عكاظ العرب في القرن العشرين، فينظر كيف انقلب الزمن؟ وكم قطعت الحضارة بين العكاظين من أشواط”.

ومن هنا ولدت لدى الأستاذ الأفغاني فكرة تأليف كتاب "يعرض لأسواق العرب وما كانت عليه في الجاهلية والإسلام، وما قامت به من عمل في خير العرب ولغتهم، ليقف (القارئ) على شأنها في

١١) المصادر نفسها ص 6 وحاء فيه أن هذا المعرض افتتح "مساء الأحد الحادي والثلاثين من حزيران سنة 1936م" كتابة، وهو سهو، صوابه "الحادي والعشرين".

تاريخنا، ويستطيع أن يفاضل بين رسالتها قديماً ورسالة المعارض حديثاً.

#### -4-

ومن ثم عكف المؤلف على أمات المصادر -وهي في هذا الموضوع جدٌ شحيحة- وراح ينقّب فيها ويفلّسها ليستخرج منها كل ما يفيد في بحثه، حتى تمتّ له مادة هذا الكتاب الذي سمّاه "أسواق العرب في الجاهلية والإسلام"، والذي يغطي حقبة تمتد قرابة ثلاثة قرون، ما بين العصر الجاهلي ونهاية القرن الثاني للهجرة (500-815 للميلاد)..

وإن الذي يطلع على هذا الكتاب القيم يُكبر هذا العمل الشاق ويوقن تمام اليقين أن صاحبه قد بذل فيه جهوداً مضنية، ولقي عناءً ونصباً شديدين، حتى استطاع هذا الكتاب أن يسد فجوة كبيرة من الفجوات في تاريخنا وتراثنا. آية ذلك تلك الحفاوة التي استقبله بها العلماء والأدباء من العرب والمستشرقين استقبلاً ما كان المؤلف "يطمع ببعضه" كما يقول، وأثنوا على الكتاب وصاحبه، ولا سيما المستشرق سالم الكرنكوي (فريتز كرنكو).

قسم المؤلف كتابه ثلاثة أبواب رئيسية، مبد بالأولتين منها للكلام على أسواق العرب، ورأهما لازمين. وقد تضمنا بحثاً وثيقة الصلة بموضوع الكتاب، وهي تتم الصورة التي يريد المؤلف أن يتمثلها القارئ مستوفاة في غير نقص ولا زيادة حين يقرأ الباب الثالث الخاص بأسواق العرب، والذي هو أكبر أبواب الكتاب.

#### -5-

والسبب الأول عنوانه "شؤون العرب التجارية: بين الجاهلية والإسلام"، ويقع في نحو سبعين صفحة (15-87).

وهو إلمامة موجزة تهدف إلى بيان اهتمام العرب عامة بالتجارة، والتجارة أحد مواضيع الأسواق عندهم.

بداية هذا الباب: "تمهيد في تجارة العرب" تحدث فيه عن اهتمام العرب بالتجارة في جزيرتهم، وعن علاقاتهم التجارية والسياسية مع الدولتين العظيمتين اللتين تتازعتا النفوذ والسيادة في العالم عصرنذ، وهما فارس والروم، فضلاً عن علاقات أخرى أضيق حدوداً: كعلاقة الحبشة والهند مع اليمن وعمان والبحرين، نظراً إلى الموقع الجغرافي الذي تمتاز به بلاد العرب، والذي أطمع كثيراً من الفاتحين قديماً وحديثاً.

وقد شغلت دول العرب القديمة كندمر وسبأ والمعينيين في اليمن المراكز الممتازة في تجارة الشرق. وإن توسط تدمر بين الدولتين: الفارسية والرومانية -بين العراق والشام وجزيرة العرب- جعلها محطة القوافل جميعاً بين هذه الأقطار، فازدهرت تجارتها واشتهرت أسواقها حتى أصبحت قبلة التجار من الهند والفرس (وجزيرة العرب نفسها) والعراق وسورية وفلسطين ومصر وأوروبا.



لك إذا رأيته (ص 49).

ولما جاء الإسلام أبطل معظم هذه البيوع الغريبة والفاصلة وشرع للمسلمين السهولة والسماحة والتبیین والوضوح في البيع.

ويأتي كلام المؤلف بعد ذلك على "ربا الجاهلية" (60-69) الذي انتشر في جزيرة العرب، حتى ألفه الناس وصاروا يأخذون به ويعطون، ومتى انتشرت عادة قبيحة ستر فسوها فبحها فلم يترفع عنها أحد. وقد شنع القرآن على كل من تعاطى الربا، وحرّمه جملةً واحدة، وأوجد الحلول لجميع العلاقات والمعاملات الربوية السابقة، كما حسم الرسول ﷺ الأمر في حجة الوداع، في خطبته البليغة المأثورة، حين قال:

"ألا إن ربا الجاهلية موضوع كله، وأول ربا أبدئ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب".

ويختتم المؤلف الباب الأول من كتابه "أسواق العرب" بالكلام على فئات من العرب في الجاهلية وهم "المُحَلِّون والمحرمون والحُمُس" (70-87) فيذكر أن العرب كانوا يعظمون أمكنة خاصة وشهوراً معينة، يضعون فيها سلاحهم حتى يزيلا المكان الحرام أو الشهر الحرام. وكان من بُعد النظر أن جعلوا أكبر أسواقهم يقام في الأشهر الحرم الأربعة، وكان من أعظم العار أن يتعدى المرء حدود الشهر الحرام والبلد الحرام.

على أن رعاية الحرم -على ما تقدم- ليست مطردة، إذ أن هناك قبائل معدودة لا تتقيد بهذه المحرمات. أما قریش فقد حظيت بين العرب بمكانة سامية وزعامة تجارية لأنها تسكن الحرم، حيث الأمن والسلم، ولأنهم سدنة البيت والقائمون بأمر الحجاج أيام الحج، فأدعت لهم العرب بذلك، ومن ثم ضرب القرشيون في أنحاء جزيرة العرب متاجرين لا يعرض لهم أحد. وتبعاً لهذه المكانة والتعظيم لهم تلقبوا بالحمس، هم وأحلافهم من قبائل أخرى، ومنحوا أنفسهم من الامتيازات ما ليس لغيرهم.

وهذا التزيّد من قريش علّم الناس الاحتياط وارتياح المنافع والاستيانة بالحرّمات، بشئى الأساليب، ليجدوا في حرمة الشّهر والحرّم خير ملاذ. ومن ثمّ كثر هؤلاء حتّى سمّوا (بالمُحلّين). وبالمقابل هناك قبائل أخرى حفظت للمكان قدسه وللشّهر حرّمته، وأنكرت على المُحلّين استخفافهم، فسّموا (بالآداة المحرّمين) وهم أغلب العرب، حتّى إن نفراً منهم أحلّوا قتال المُحلّين بالسّلاح ودفعوا عن الناس شرّهم وأذاهم.

-6-

أما الباب الثاني من كتاب "أسواق العرب" فقد كان موضوعه "أحداث قريش التجارية" (89-190) وتناول فيه أربعة أمور، وهي:

قَرِيشُ التَّجَارِ، إِيْلَافُ قَرِيشٍ، حَرْبُ الْفَجَارِ، حُفُّ الْفُضُولِ.

ففي حديثه الأول ذكر سبب تسمية "قريش" بهذا الاسم، وأورد ثمانية آراء في ذلك، أشهرها أنهم كانوا أهل تجارة وتكسب في البلاد، يتقرشون (أي يجمعون) البضائع فيشترونها، أو لتجمعهم إلى الحرم بعد تفرقهم في البلاد، ولم يكونوا أهل زرع وضرع.

وقريش في الأصل طبقتان -من حيث السيادة- فهناك (قريشُ البطاح) وهم الذين نزلوا بطحاء مكة وبطنها، من بني هاشم وبني أمية، وهم سادة القرشيين. وهناك (قريشُ الظواهر): نزلوا أعلى مكة وانتشروا حولها في ظواهرها (ضواحيها) وهم دون قريش البطاح شرفاً وشأناً.

ولقريش -بعد ذلك- مكانتها التجارية والاجتماعية والدينية، وأشهر رجالها: قصي بن كلاب، وهاشم بن عبد مناف، والمطلب بن عبد مناف، وعبد المطلب بن هاشم.. وبقيت هذه المكانة لأولادهم وأحفادهم في الإسلام، وهي أشبه بالوظائف الرسمية.

ففي التجارة كان القرشيون يسيرون قوافل عظيمة، معها حامياتها وأدواتها وأدلاؤها، وأدى ذلك إلى اختلاطهم بالأجانب المتحضرين كالروم والفرس والحبشان، وإلى تمييزهم بأمور منها: اللباقة والكياسة، والفصاحة في اللغة، والعلم والثقافة، وتعلم فريق منهم الكتابة، كما كان أكثر كتّاب الوحي منهم. وقل أن تجد قرشياً ذا شأن في الجاهلية والإسلام إلا كان تاجراً.

أما مكانتها الدينية بين العرب فتجلى في أمرين: أولهما الرفادة، أي تقديم الطعام للحجاج، وهذا ما أغراهم بالقدوم إلى مكة والإقبال على تلك الأسواق التجارية، وبذلك تضمن قريش رواج تجارتها التي هي قوام أمورها في الحياة. وثاني الأمرين: كسوة الكعبة وما يتصل بذلك من أمور، وكان ذلك مدعاة لتباهي قريش به أمام سائر العرب، حتى إن أفراداً آخرين من غير قريش راحوا بشرئوبون إلى تحقيق ذلك الشأن.

وفي القسم الثاني من هذا الباب يتحدث المؤلف عن "إيلاف قریش" (174-161) وهو ما يمكن أن يسمى في عصرنا بالمعاهدات التجارية.

وهو أبرز حادث في تاريخ العرب التجاري قُبيل الإسلام، وقد أخبر به القرآن الكريم. وهناك آراء في تحديد معنى "الإيلاف" (148)، ومنها الرِّيح المخصوص الذي جعله هاشم بن عبد مناف لرؤساء القبائل لكي يكفيهم مؤونة الأسفار، ويكفي قريشاً الأعداء، ومنها: العبد، وشبه الإجازة والخفارة، مما هيأ لقريش - حين أخذ لها الإيلاف (العبد) من الملوك- أن ترحل إلى الشام والحبيشة واليمن والعراق...

ثم ذكر المؤلف الإيلافات أو المعاهدات التجارية التي عقّدها قريش مع العرب والروم والحبشة وفارس، وبذلك خرجت تجارة قريش من طابعها المحلي وأُفقيها المحصور إلى رحابة الآفاق الأجنبية، فانتسعت تجارتها وارتقت مكانتها الاجتماعية وكثرت أموالها، بفضل الإخوة الأربعة هاشم، والمطلب، وعبد شمس، ونوفل، أبناء عبد مناف. وهم أصحاب الإيلاف الذين رفع الله بهم قريشاً ونعّس فقراءها، وبني تجارتها على أسس قوية، حتى صارت شبه دولية بعد أن كانت محلية.



ويأتي، بعد ذلك، القسم الثالث من هذا الباب الثاني، فيخصّه المؤلف (بحرب الفجار)، (162-180) وهي الحرب التي وقعت في الأشهر الحرم التي تعظمها العرب وتحرم فيها القتل والقتال، فلما خرج المتحاربون فيها على شريعة العرب كانوا فاجرين بذلك. وهذه الحرب تتصل بأحداث سوق عكاظ قرب مكة، وما حولها. وأيامها خمسة تفرقت على أربع سنين، وكانت في حقيقتها نزاعاً وتزاحماً على الكسب والنفوذ التجاري والأدبي، بين قريش وأحلافها من جهة، وهوازن المعروفة بعددها وبطشها حول عكاظ من جهة أخرى، على الرغم من أن قريشاً لم تكن تودّ وقوع هذه الحرب، لأسباب تجارية واجتماعية. وقد حضرها الرسول ﷺ بنفسه وكان فتىً يافعاً.

وأخيراً تداعى الفريقان إلى السلم، على أن يذروا الفضل في الدماء والأموال ويتعاهدوا على الصلح، وعقدوا على ذلك موثقيهم.

وبقيت هذه الأحداث للذكرى والفخر، يتمجد كل شاعر قوم بما فعل قوميه وبما أليم من محامد ومآثر.

ويختتم المؤلف حديثه عن حروب الفجار بقوله (180): "وهكذا كانت تجارة العراق في (عكاظ)، وما يفيد من يُجيرها من أرباح مادية ومعنوية، هو وقبيلته، سبباً مغرياً في هذه الحروب، ولا بدع في ذلك فحن ما نزال إلى اليوم نرى أكثر الحروب في حقيقتها تطاحناً على النفوذ الاقتصادي والتنافس التجاري، إن لم يكن بصورة جلية، فمن وراء الستار".

ويأتي حديث المؤلف عن (حلف الفضول) في نهاية هذا الباب (181-190). وهذا الحلف ينفرد عن بقية العهود والأحلاف عند القرشيين بأهمية خاصة، ورعاية مقدسة، وتبجيل وشرف، لا يحظى بها حلف آخر. وهو حلف تجاري بمقدماته ونتائجه، حفظ سعة قريش، وصان ازدهار أسواق مكة، وحفظ حق الضعيف بعد أن كاد الأمن فيها يتعرض للخطر، وأوشكت ثقة الأعراب وتجار النواحي بأسواق مكة تتزعزع.

واستمرت ثمرة هذا الحلف في الإسلام وازدادت تأييداً وقوة ومنعة، وقد أثنى عليه صاحب الرسالة ﷺ بعد أن شاهده وهو فتى في العشرين من عمره، وكان به جذلان مغتبطاً.

وكان هذا الحلف منصرف قريش من حروب الفجار لعشرين سنةً من عام الفيل. وسمي بذلك لأنهم تحالفوا على ردّ الفضول لأهلها، وعلى دفع الظلم وأخذ الحق من الظالم مهما كان شأنه، وكان هذا التحالف والتعاهد في دار عبد الله بن جُدعان.

والمُتأمل في هذا الحلف وملابساته وأسبابه يجد أن الداعي الأول له هو حرص قريش على سمعة بلادهم التجارية أن تُنظم بين العرب فتنزع عزع تقتلهم بقريش وبلادهم. ولذلك عظموا أمر ذلك الحلف واهتموا به كل الاهتمام فقام لهم مقام المحاكم التجارية، والقوة التنفيذية معاً.

وقد امتدَّ في حياة المسلمين بعد ذلك، وكانت له آثار وفوائد جمة في العلاقات بين الناس والحكام وفي رعاية الحقوق.





المتناهية في الحضارة. فعكاظ أهدمت سنة 129هـ (قُبيل زوال الخلافة الأموية 132هـ). وآخر ما انقرض من تلك الأسواق سوق حُباشة في تهامة، بين الحجاز واليمن، وذلك سنة 197هـ.

أما عدد الأسواق عند العرب، وتحديد أوقاتها، فليس هناك اتفاق بين المؤلفين القدامى على هذين الأمرين ولا سيما تاريخ قيام الأسواق، لعدم التزام العرب كل سنة بيوم ثابت لإقامتها، ويوم آخر محدّد لتقويضها. وقد استطاع المرحوم الأفغاني أن يبلغ بها العشرين سوقاً، وهي ثلاثة أصناف:

1- أسواق خاضعة لنفوذ أجنبي: فارسي، كهجر وعُمان، أو روماني كما في بصرى وغزة. ويتولى أمرها كلاً عمال عرب لأخذ الضرائب فهم معيّنون من قبل ولاه الفرس، وولاة الرومان.

2- أسواق أنشأها العرب أنفسهم بحكم الحاجة، فصارت مع الزمن تمثلم أصدق تمثيل في عاداتهم وبيوعاتهم، ولا يشرف عليها إلا سادة أهلها. وخير ما يمثل هذا الصنف: سوق عكاظ.

3- أسواق ذات صبغة مختلطة، نظراً إلى موقعها الجغرافي، وهي التي تكون على البحر: كعدن، وصُحار. وفيها يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس، ويضول فيها الطابع القومي بمقدار ما يقوى شأنها التجاري.

## 8.

ثم ينتقل المؤلف إلى الكلام على "أسواق العرب في الجاهلية" (231-389) وهي عند عشرون سوقاً واقعة في أماكن تضاف إليها، وهي:

(دومة الجندل، المشقر، هجر، عُمان، حُباشة، صُحار، دُبى، الشَّحْر، عدن أبيّين، صنعاء، حضرموت، عكاظ، مجنة، ذو المجاز، نطاة خيبر، حجر، دير أيوب، بصرى، أذرعات، الحيرة).

ويلاحظ أن اسم كل سوق مرتبط بالمكان أو البلد الذي تقام فيه، وأن من هذه الأسواق ما هو داخل جزيرة العرب وهو الأكثر، ومنها ما هو خارجها.

وفي حديث المؤلف عن كل سوق يفصل الكلام على اسمها وموقعها الجغرافي وحدودها وتطورها على مر السنين، وصاحبها أو المشرف عليها، ومن يفد إليها أو يجاورها من القبائل، وما يباع فيها من بضائع وسلع وأمتعة ومون، وزمن انعقادها، ومتى تقتر حركتها وينقضي موسمها، وما قيل فيها من الأشعار. وقد يعرض لنا مشاهد ومنافرات ومواقف فيها كأنك تراها. وحديثه عن السوق يطول أو يقصر، يفصل أو يوجز، بحسب أهمية تلك السوق وشهرتها، أو بحسب ما يتوافر له من مصادر عنها.

على أنه يخصص سوق عكاظ بأوفى نصيب وأوسع تفصيل، حتى يصل حديثه عنها إلى نحو

السبعين صفحة، ولا يمكن إيفاؤها حقاً من الكلام في هذا البحث. فلنكتفِ بأهم ما ذكر عنها في الكتاب:

فمن الناحية الصرفية يجوز صرف اسم "عكاظ" ومنعه. وقد جرى المؤلف على منعه لأنه رأى المنع هو الأكثر فيه والأشهر.

أما اشتقاق كلمة "عكاظ" وسبب تسميتها بذلك، فالتغويين في ذلك مذاهب، وأقربها أن العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضاً في المفاخرة، أي يقره. وقيل إنها من التعاكظ أي التفاخر. والزمن الرسمي لهذه السوق هو شهر ذي القعدة. والأكثرون على أنها تبدأ من أول ذي القعدة وتستمر حتى العشرين منه. ولكن هذا لا يمنع تقاطر الناس إلى عكاظ قبل بداية الشهر، ولا تأخرهم عن العشرين حتى اقتراب موعد الحج.

وموقع عكاظ وادٍ واسع مستو ذو نخيل ومياه، بين مكة والطائف، جنوبي مكة إلى الشرق. ويؤم هذه السوق معظم قبائل العرب، قادمين من العراق والبحرين واليمامة وعُمان واليمن وسائر أطراف الجزيرة يختلط بعضهم ببعض، فهي عامة لا تخص قبيلة أو قبائل بعينها، وهذا من أهم مزاياها. فضلاً عن أن قربها منحها حرمة عظيمة.

وفي هذه السوق تقيم القبائل، قبيل قيامهم بالحج، يتبايعون السلع والبضائع، ويتشادون الأشعار، ويتفاخرون ويتنافرون وكانت الحكومة في الشعر للناطقة الذبياني، كما كان بنو تميم وأفخاذهم يقومون بأمر الحكومة عامة والفضل والقضاء بين الناس، وضبط أمورهم من خلال الإشراف على السوق، كما تضبط أمور كل قبيلة أشرفها وقادتها.

فسوق عكاظ إذن مجمع ضخم حافل لم يكن للعرب أحفل منه سياسة ومفاخرة وفداء أسرى، وأدباً وحرناً ومتاجرة، وهي المعرض العربي العام أيام الجاهلية، بل هي مجمع أدبي لغوي رسمي، يضم الشعراء والرواة من عامة الأقطار العربية، وكل منهم يحمل أدبه ولغته وألفاظه، فما تزال عكاظ بتلك اللهجات غريبة ونحلاً واصطفاءً حتى يتبقى الأنسب الأرشق، وي طرح المجفؤ الثقيل.

وعكاظ هي السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة، يُحمل إليها من كل بلد تجارته وصناعاته وأدبه: من خمر بلاد الشام والعراق، وبرود اليمن الموشاة، وأنواع الطيب والسلاح، وبياع فيها الحرير والأحذية، وزيت الشام وزبيبها، حتى الرقيق الناشئ عن الغزو، وسبي الذراري يباع فيها بيع المتاع التجاري.

ثم إن هذه السوق معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية التي سبقت الإشارة إلى بعضها: من خطب ومنافرات وتحكيم بين الخلافات، ومصارعة بين الأبطال من الفتيان، ووجود فئات أخرى غير أولئك، من كاهن وعراف وعائف وقائف<sup>(1)</sup> وقرظ وغنم وصحيفة وكاتب.

(1) العائف: من يزجر الطير، فيكون طيراً سبياً للتشاور أو التنازل. وصنعتُه العيافة. والقائف: من يحسن معرفة الأثر وتبعه. وتسمى حرفته: القيافة.

وهناك أناس من غواة الشهرة: هذا يمدّ رجله متحدّياً وينشد شعراً ويقول: "من كان أعزّ العرب فليقطع رجلي". وآخر يأتي عكاظ ببنااته ترويحاً لزوجته، وأناس قدموا إليها ليختاروا من يتزوجون إليه. وهكذا تكون في عكاظ أشياء لا تُعهد في أسواق العرب الأخرى.

وعكاظ أيضاً ندوة سياسية عامة، تُقضى فيها أمور كثيرة بين القبائل: من جمع الإتاوات، وإعلان المآثر شعراً، وإعلان الحرب على عدو، والتشهير بمن يأتي عملاً شائناً، واستلحاق أحد بنسب رجل، أو التبرؤ علناً من قريب لسبب ما، حتى لا يتعامل معه أحد.

والخلاصة أن هذه السوق الكبرى، سوق عكاظ، تمثل لنا — بما يكون فيها — أحوال العرب وعاداتهم الاجتماعية في جوانب كثيرة كما رأينا. وهناك شبه كبير بين عكاظ ومعارض عصرنا هذا، بل إن عكاظ لأوسع مدى، فهي لا تقتصر على مواد التجارة والصناعة، بل تتعداهما إلى الأدب والشعر والحرب والسلم والعادات السائدة. وما يجري في عكاظ كان يجري قريباً منه في بقية أسواق العرب، ولكن بصورة مصغرة.

وبعد الكلام المفصل على عكاظ، وأحوالها. وتاريخها، مما سبق بيانه، يعرض المؤلف لنا مثلاً ومشاهد ونصوصاً عما كان يجري في عكاظ (293—337) استمدّها من مصادر شتى قديمة، نكتفي منها بالمشهد التالي بعنوان "ما رأيت شيخاً أكذب" ص(337):

"مرّ المستوغر بن ربيعة<sup>(1)</sup> — شاعرٍ معمرٌ — بعكاظ يوماً، وعلى ظهره ابنُ ابنه شيخاً هرمًا، فأعيا من حمّله، فوضعه بالأرض وقال: عنيّتي صغيراً وكبيراً. فسمعه رجل فسأه ذلك، فالتفت إليه ناصحاً: يا عبد الله، أتقول هذا لأبيك؟ أحسن إليه، فطالما أحسن إليك. قال المستوغر: أتدري من هو؟ قال الرجل: نعم، هو أبوك أو جدّك. قال: هو والله ابنُ ابني. قال الرجل: ما رأيت شيخاً أكذب. لو كنت المستوغر بن ربيعة ما زدت. قال: فأنا المستوغر بن ربيعة".

وبعد أن يعرض المؤلف هذه المشاهد المختلفة لعكاظ والتي جعلتنا نعيش أجواء هذه السوق، ونستحضرها في أذهاننا خلال قراءتنا الأدبية أو التاريخية، عن ذلك العصر، يقول:

"الآن تستطيع أن تفهم: لم يعد مؤرخو الأدب عكاظ في أول ما وُحِدَ ليجات القبائل العربية قبل نزول القرآن الكريم بأكثر من قرن، وهياً لقريش تلك الزعامة والتحكم في اللغة والانتقاء، فسلمت من عيوب اللّجات، وعرفت أيضاً أن عكاظ دنيا تعجّ بالقاصدين من كل فجّ عميق... فأنت إذ تجول في عكاظ ينقسم سمعك خطبٌ وقصائد ومفاخرات ومنافرات وخصومات، وأنماط من البيع لا تتشابه وأزياء في اللبس والتكلم والمراكب... تجمعت من كل صوب".

ويختتم كلامه على سوق عكاظ بقوله: (ص342):

(1) عُمر طويلاً جداً، وأدرك صدر الإسلام. ولقد بالغوا في عمره حتى أوصلوه إلى (320) سنة، وقد سُمّ حياته وكثير أحفاده أنصغار. ومن شعوره:



وقد اشتهرت البصرة بسوق المربد الموسمية، التي ورثت سوق عكاظ، وقضت على ما كانت تتمتع به من ميزات منذ عصر الراشدين فما بعده، حتى أصبحت "عكاظ الإسلام".

كان موقع المَرَبِد في الجهة الغربية من البصرة إلى البادية، ليكون أول ما ينزلون به إذا قصدوا البصرة، وآخر ما يتركون إذا رحلوا عنها. ومعنى "المربد": مَحْبِس الإبل ومربطها، وببدر التمر. ويبدو أنه كان في الأصل كذلك، ثم صار في العصر الأموي سوقاً عامة كسائر الأسواق الموسمية في الجاهلية: من تعاطي البيع والشراء، وسماع الشعر والأدب والخطب واللغة، إلى جانب تفاخر الأشراف، وتباجي الشعراء وتشاور الناس، وإحياء ما أماته الإسلام من حمية جاهلية وعداوات وثورات.

وهذه السوق تقع حوادثها ونشاطها بين سنة 36 هـ (في أول خلافة الإمام علي) وأواخر القرن الثاني الهجري (في خلافة الأمين بن هارون الرشيد)، إذ اضمحل شأنها مع سوق حُباشة آخر أسواق الجاهلية انقراضا وزوالاً.

ولهذه السوق "المربد" أثر بعيد في اللغة العربية من وجوه كثيرة فاقت فيها أثر عكاظ. وكانت تعج بأعلام اللغة والأدب والشعر والنحو، الذين يفنون على المربد ومعهم محابريهم ودفاترهم يكتبون عن فصحاء الأعراب هناك، بعد أن انتشر اللحن والعجمة، وبدأ التدوين والتأليف على نطاق واسع. وكذلك الشعر وحلقاته، فلكل شاعر حلقة، ولكل متهاجين مجلس، ولكل قبيلة ناد وشاعر يزود عنها.

ثم إن المراد يتفرد بأنه رَفَذَ اللغة بمادة كثيرة، عليها أسس النحاة قواعدهم وضبطوها عن طريق الاتصال وملازمة فصحاء الأعراب للاستفادة والتعلم. فكان المراد ينبوعاً ومصدراً لأكثر مواد كتب الأدب واللغة والأخبار: كالأغاني، والأُمالي، والبيان والتبيين، والكامل...

وهكذا جمع المربد بين التجارة والأدب واللغة والسياسة والحرب أيضاً، إذ كان مسرحاً لموقعة الجمل، وثورة عبد الرحمن بن الأشعث أيام ولاية الحجاج على العراق، وفي المربد لقي ابن الأشعث خطبه في حضن الناس على الثورة. واتسع أمر المربد وكثر قاصدوه وازدان بأفحل الرجّاز والشعراء الذين أخرجهم العيد الأموي: كجرير والفرزدق والأخطل والراعي النميري، ومن الرّجّاز: أبو النجم العجّلي، ورؤبة وأبوه العجاج.

واستمر المربد في العصر العباسي، على شيء من الاختلاف عما كان يؤديه في العصر الأموي، وتبدلت الحياة الاجتماعية للناس، وظهرت العلوم تراحم الأدب والشعر، وبدأ الفساد واللعن يسريان إلى اللغة فتحول المربد ليؤدي غرضاً يتفق وهذه الحياة الجديدة، وأصبح مقصداً للأخذ عن الأعراب: اللغة والشعر والأخبار لتدوين ذلك كله، فيقصده أمثال بشار بن برد، وأبي نواس، والأصمعي، وأبي عمرو بن العلاء. وخرج النحويون ليسمعوا من أهل المربد ما يصحح أغلاطهم، ويؤيد مذاهبهم، من كوفيين وبصريين، كما خرج الأدباء ليأخذوا الأدب، من جمل بليغة، وشعر رصين، وحكم وأمثال، مما خلفه عرب البادية أو توارثوه عن آبائهم، كما فعل الجاحظ.

كل ذلك نجده في المرید الذي أصبح أيضاً منشِرةً للمحامد والمساوی، لتكون أُنشِيع وأُسَیر وأُبْلَغ



56

الجاهلية حتى أواخر القرن الهجري الثاني، سواء في ذلك الجزيرة العربية، وبلاد الشام والعراق.

3- حرص المؤلف كل الحرص على أن ينقل القارئ إلى جو تلك الأسواق فيراها كما هي، من خلال ما توافر له من المصادر، فرأينا فيها عادات العرب وبيوتهم وتجاراتهم وصناعاتهم، حتى مجالسهم الأدبية وبلاغتهم الشعرية والنثرية،...

4- ربما كان في الكتاب وأخبار الأسواق، والأشعار المسرودة، ما قد يُظن أنه مصنوع. ويعلل المؤلف ذلك بقوله: "غير أن صانعه قد اجتهد أن يقلّد فيحسن التقليد، ويحاكي الأصلي، فيحكم الحكاية، فإن شككنا في نسبة الخبر، لم نشك أبداً فيما يدل عليه، أو يستخلص منه" (1).

5- عني المؤلف بشرح ما يمرّ به في متن الكتاب ونصوصه الشعرية والنثرية، من ألفاظ غريبة، أو معانٍ مغلقة، وهذه بادرة طيبة، وبذلك يكون المؤلف قد بلغ جهده واستفرغ وسعه في الاجتهاد - كما قال - "لأن يكون هذا العمل أقرب من كمال، وأبعد من نقص" (2).

6- وورد في مطاوي الكتاب، عند الاستشهاد ببعض النصوص، هئات يسيرة جوز المؤلف لنفسه نقلها في كتابه، مع تصريحها بما يُحتشم منه - كما قال - "لأنها لا تتم الصورة إلا بها، ولأنني أحرص على أن يتمثل القارئ حالة الأسواق تمثلاً صادقاً صحيحاً كاملاً، على قدر الإمكان" (3).

7- نحن نعلم أن هناك سوقاً أخرى في الإسلام هي (سوق كناسة) وكانت في مدينة الكوفة. إلا أن الأفغاني رحمه الله لم يعتدّ بها وأغفل الكلام عليها، واكتفى بأن قال عنيا: "ليس لها ذلك الشأن". وقال في موضع آخر من كتابه: "أقام الكوفيون (سوق كناسة) بالكوفة لتقوم لهم بما يقوم المربد للبصريين، فلم يفلحوا، ولم تذكر سوقهم قط، ولا قصدها مثل من يقصد البصرة، من فصحاء العرب وخطبائهم وشعرائهم ورجازهم، بل كانت إلى إفساد اللغة أقرب" (4).

8- يلاحظ قارئ هذا الكتاب ما يسارو خاطر مؤلفه من هاجس ملح، وهو الحرص على نهضة العرب والمسلمين، ووحدتهم، والأنسى لما وصلت إليه حالهم بعد الأمجاد التليدة والحضارة الزاهية. ولذلك لا يدع المؤلف فرصة تمرّ إلا ربط فيها الماضي بالحاضر، ونبه الأذهان إلى الأخطار المحدقة بالأمّة، سياسياً واجتماعياً وثقافياً وحضارياً.

(1) أسواق العرب، المقدمة ص 11.

(2) أسواق العرب، المقدمة ص 11.

(3) انظر المصدر نفسه، ص 11 أيضاً.

(4) المصدر نفسه، ص 407 ثم 423. وسبق مثل قوله هذا في كتابه: "في أصول النحو"، الطبعة الثانية، ص 199.

